

ابن حيان الأندلسي والفتنة القرطبية

بقلم

أ. سليم حاج سعد (***)



ملخص

تعتبر الفتنة القرطبية منعرجا هاما وخطيرا في التاريخ الأندلسي، وذلك بتأثيرها على جميع المجالات، حيث يمكن اعتبارها بداية النهاية للوجود الإسلامي في شبه الجزيرة، وقد اختلف المؤرخون في سرد أحداثها وتحديد المسؤوليات فيها، ومن بين الشخصيات التي عاصرت هذه الفتنة وشاركت فيها وتأثرت بها وأرخت لها: ابن حيان الأندلسي، فهو الذي كان مناصرا للفريق الأندلسي ضد خصومهم من البربر المغاربة وذلك ما أثر على طريقة كتابته لتاريخ الفتنة.

- الكلمات المفتاحية: الأندلس، قرطبة، ابن حيان، الفتنة، الخلافة
مقدمة

تميزت الأندلس الإسلامية في العصر الوسيط بكثرة الثورات والفتن على اختلاف توجهاتها وتنوع غاياتها وأسبابها، وهو ما أدى إلى تقويض البناء وتسريع السقوط أمام المد النصراني الشمالي، والذي استمر يقاوم ثمانية قرون حتى حقق مراده ومبتغاه في طرد المسلمين من هذه الأرض.

وحسب أغلب المؤرخين القدامى والمحدثين، فإن من أهم الفتن والثورات التي أثرت بعمق على مسار التاريخ الإسلامي الأندلسي، هو ما يسمى في المصادر التاريخية بالفتنة

(*) أستاذ مساعد "أ" قسم العلوم الإنسانية - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الوادي - الجزائر.

(**) باحث في الدكتوراه بقسم التاريخ والآثار - كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة قسنطينة - الجزائر.

"البربرية" أو الفتنة القرطبية، وهي التي دارت رحاها في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وأهم ميادينها العاصمة قرطبة، وأهم أطرافها الأندلسيون من جهة والبربر المغاربة من جهة أخرى.

إن نتائج الفتنة القرطبية كانت كبيرة ووخيمة على وحدة المسلمين وقوتهم، وكذا مستقبل وجودهم في شبه الجزيرة، لذا جلبت أنظار المؤرخين الأندلسيين وغيرهم، فقد تناولتها المصادر التاريخية بدرجات متباينة بين التحيز والموضوعية أو بين العمق والسطحية، ما بين مصادر أندلسية ومغربية وأخرى مشرقية.

ومن بين المؤرخين الذين اهتموا بهذه الفتنة: ابن حيان الأندلسي، فمن هو هذا المؤرخ؟ وما هي الأحداث المميزة لهذه الفتنة؟ وما تأثيرها على شخصية ابن حيان؟ وإلى أي حد اهتم بها وأرخ لها؟ وما هي أبرز مواقفه منها؟

ولد حيان بن خلف بن حيان بن حسين بن محمد بن وهب في قرطبة سنة 377 هـ / 987 م، وهو ينتسب إلى أسرة إسبانية الأصل أيدت عبد الرحمن الداخل فاصطنعها لنفسه، وبقيت موالية لأبنائه من بعده².

وقد كان خلف أول من تولى منصبا رفيعا في دولة بني أمية من هذه الأسرة³، وهو ما سمح لابن حيان أن يلقي تعليما على يد خيرة علماء قرطبة في الأدب والتاريخ وعلم الحديث⁴، وكان ابن حيان على ما يبدو هو الابن الوحيد لوالده، فنحن لا نسمع فيها كتبه أي إشارة لأخ له، فقد أفرد له والده كل اهتمامه، فوفر له منذ صباه أحسن المؤدبين، كما كان ابن حيان بطبيعته غلاما لماحا متوقد الذكاء⁵.

وقد كان خلف بن حسين من الجاه والثروة بحيث عرف كيف يختار لابنه عددا من الشيوخ، بل كان حيان ينفرد بالشيخ منهم لكي يختصه بدروسه، ويكون ذلك إما في داره أو دار الشيخ، وهو ما نجده في نص تحدث فيه عن قراءته لكتاب الفصوص لصاعد البغدادي⁶ حيث يقول: "وقرأته عليه منفردا في داره سنة 399...⁷".

وهكذا يكون ابن حيان قد تلمذ في اللغة على أبي عمر أحمد بن عبد العزيز ابن فرج،

المعروف بابن الحباب⁸، وعمر بن حسين بن نابل الأموي القرطبي الذي يكنى بأبي حفص⁹، وفي الأدب على صاعد بن الحسن ابن عيسى الربيعي المعروف بصاعد البغدادي، وفي الفقه والحديث على عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي، المكنى بأبي الوليد والمعروف بابن الفرضي¹⁰، وأبي القاسم بن أبي يزيد المصري في الحديث¹¹.

ويعتبر أبو مروان بن حيان من النماذج الفذة على سعة الثقافة وحسن الإدراك، حيث يقول عنه الدكتور محمود علي مكي: "... والذي يتأمل ما لنا من إنتاجه الهائل، يزداد اقتناعاً بأنه كان من أجمع علماء العصور الوسطى لعلوم الإسلام ..."¹².

إن الدارس لشخصية ابن حيان يلاحظ لأول وهلة أنه كان عميق الإدراك لرسالة حياته الحقيقية، وهي كتابة التاريخ، فلم يفتح على نفسه تخصصات عديدة كما فعل علماء عصره، فنستطيع أن نقول أنه فطن إلى قيمة "التخصص" الدقيق بالمفهوم الحديث لهذا اللفظ، بل وأكثر من ذلك فإنه لم يوسع على نفسه بالتاريخ العالمي، فلم يكتب تاريخ الشرق والغرب أو الأمم القديمة والحديثة، وإنما توقف عند التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى عصره¹³.

وقد أثنى المؤرخون القدامى والمحدثين على تاريخ ابن حيان، فابن حزم ذكره وأثنى عليه في رسالته التي نقلها المقرئ في نفح الطيب عن فضل الأندلس¹⁴، وابن سعيد كذلك أثنى عليه في كتاب المغرب، ويسميه ابن بشكوال "صاحب لواء التاريخ أفصح الناس وأحسنهم نظماً له"¹⁵، كما يسميه ابن الأبار "جهينة أخبار المروانية"¹⁶، أما المحدثين منهم، فقد جعله الدكتور حسين مؤنس عميد المؤرخين الأندلسيين¹⁷، كما يعتبره الدكتور عبد العزيز فيلاي حجة مؤرخي أسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصور الوسطى، وعميدهم على الإطلاق¹⁸.

وللأسف الشديد فقد ضاع معظم ما ألفه ابن حيان، وما وصلنا منه فهو لا يتعدى قطعاً صغيرة أو مجموعة من النقول الموجودة في كتب أخرى اعتمدت عليه¹⁹، ومن بين مؤلفات ابن حيان كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس، والذي وصلتنا منه خمس قطع مختلفة العنوان، فالقطعة الأولى نشرها الدكتور محمود علي مكي، والتي وجدها

مبتورة العنوان فاختار لها عنوان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، أما القطعة الثانية فقد حققها ونشرها الراهب الأسباني ملتشور أنطونيا في باريس سنة 1356هـ / 1937م تحت عنوان المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، أما القطعة الثالثة فهي التي نشرها ب. شالمطا، ف كورنيطي ومحمد صبح سنة 1400هـ / 1979م والتي حملت عنوان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس²⁰، أما القطعة الرابعة فقد قام بتحقيقها الأستاذ عبد الرحمن علي الحجي ونشرها تحت عنوان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس²¹، إضافة إلى بعض الأجزاء التي نشرها الباحث ليفي بروفنسال في مجلة الأندلس²².

ويذكر ابن الأبار هذا الكتاب في موضعين تحت عنوان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، وقد تناول ابن حيان في هذا الكتاب تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي سنة 91 هـ / 709 م إلى بلوغ ابن حيان سن الكهولة كما يدل على ذلك قول ابن حزم في رسالته في فضل أهل الأندلس حيث يسميه بالتاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس²³.

أما الكتاب الثاني وهو كتاب المتين، والذي يذكره ابن سعيد حيث يقول: "وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدة ... والمتين يذكر فيه أخبار عصره ويمعن فيها مما شاهده ..."²⁴، وقد ضاع للأسف الشديد هذا الكتاب إلا ما بقي من نقولات في كتب المؤرخين المتأخرين عن عصر ابن حيان، مثل ابن بسام الشنتريني في كتاب الذخيرة، وابن عذارى في البيان المغرب، وكتب ابن الأبار والمغرب لابن سعيد، وصلة ابن بشكوال وترتيب المدارك للقاضي عياض، أما الكتاب الثالث والذي وصلتنا أخبار عنه وهو تحت عنوان أخبار الدولة العامرية، ويؤكد لنا وجود هذا الكتاب كل من ابن الأبار، وابن سعيد المغربي وابن الخطيب وعبد الواحد المراكشي²⁵، وقد تناول على ما يبدو في هذا الكتاب بشيء من التفصيل أخبار المنصور ابن أبي عامر وولديه من بعده²⁶.

وأما الكتاب الرابع من كتب ابن حيان فهو كتاب البطشة الكبرى، والذي تكلم فيه عن نكبة أسرة بني جهور، وسيطرة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية على قرطبة، وقد ذكر هذا الكتاب ابن بسام الشنتريني في ذخيرته²⁷.

كان ابن حيان من المعاصرين لأحداث الفتنة القرطبية ونتائجها على بلاد الأندلس، فهو ينتمي إلى من ساهم الدكتور محمود علي مكّي بـ "جيل الفتنة البربرية" من أمثال ابن حيان وابن حزم وابن شهيد²⁸ وابن عبد البر²⁹، والذين تميزوا على حد تعبيره بالحدة في أحكامهم والسخرية من قومهم، فكانوا بذلك نتاج فترة إحباط نفسي³⁰، فهم الذين شهدوا في مقتل شبابهم عظمة الدولة وقوتها، ثم رأوا انتكاستها المفاجئة المذهلة.

لقد شهد ابن حيان ما آلت إليه الخلافة الأموية في الأندلس من ضعف حين شعر الحكم المستنصر في أواخر عهده بالضعف والمرض، فأوصى لابنه هشام بولاية العهد من بعده وهو لم يبلغ التاسعة من عمره بعد، وقد أخذ له البيعة قبل وفاته، فلما انتقل إلى جوار ربه نفذت رغبته وأصبح ابنه الصغير خليفة للمسلمين في الأندلس³¹.

إلا أن الخليفة المؤيد بالله ونظرا لصغر سنه، شكل مجلسا للوصاية عليه، وهذا لتسيير شؤون الدولة، بما مهد الطريق لبروز شخصية قحطانية³² قوية وفريدة من نوعها، لكن من خارج البيت الأموي، وهي شخصية محمد بن أبي عامر، الذي استطاع بدهائه السيطرة على أمور الحكم بعد أن قام بإقصاء كل المنافسين والمنائين له، فتخلص في البداية من سيطرة الصقالبة، ثم من الحاجب بن عثمان المصحفي، وكذا من القائد غالب، وبعد ذلك أبعد السيدة صبح أم هشام المؤيد بالله³³، فخلا له الجوب بذلك للانفراد بالملك، فتغلب على الخليفة هشام المؤيد وحجره في قصره، لا تراه الخواص ولا العوام³⁴، ثم تسمى بالحاجب المنصور سنة 371 هـ / 981 م، كما أمر بالدعاء له على المنابر بعد الخليفة³⁵.

هذا الوضع، جعل السلطة الزمنية تخرج عن سيطرة الخليفة والأمويين بشكل عام، فلم يبق لهم إلا السلطة الروحية من الدعاء على المنابر وكتابة اسم الخليفة على السكة والطرز³⁶.

ورغم كل ذلك، فإن المنصور بن أبي عامر قام بأعمال جليلة لصالح المسلمين في الأندلس، حيث أنه نظم الدولة تنظيما دقيقا وأشاع العدل فيه³⁷، كما قام بالجهاد ضد الممالك النصرانية الشمالية، وذلك بتنظيم الصوائف والشواتي كل سنة، حيث قام بنحو

سبع وخمسين غزوة قادها بنفسه، لم يذق فيها طعم الهزيمة أبداً³⁸، فكانت نصراً وعزاً لم تبلغه الأندلس إلا في عصره.

استمر الحاجب المنصور يحكم الأندلس ستة وعشرين عاماً دون منازع، يحقق الانتصار تلو الآخر على النصارى حتى أعطوا ولأثمهم له، وقبل وفاته، عهد بمنصب الحجابة لابنه عبد الملك الذي تلقب بعد وفاة أبيه ليلة الاثنين 27 رمضان سنة 392 هـ / 11 أوت سنة 1002م بالمظفر بالله³⁹.

واصل عبد الملك المظفر حكم الأندلس باسم الخليفة هشام المؤيد بالله على سيرة أبيه المنصور، فاحتفظ بالسلطة الزمنية تاركا السلطة الروحية الاسمية للخليفة المحجور عليه⁴⁰، إلا أن فترة حكمه لم تتعد السبع سنوات، وبعد وفاته سنة 399 هـ / 1009 م خلفه أخوه الملقب بشنجل وهو في الخامسة والعشرين من عمره⁴¹، هذا الأخير الذي لم يكن يتمتع بالصفات التي كان يتمتع بها أبوه وأخوه من قبل، بل وأكثر من ذلك فقد وصف بـ "الطيش والخلاعة والمجانة"⁴².

جرى عبد الرحمن بن المنصور على سنة أبيه وأخيه في الحجز على الخليفة هشام المؤيد بالله، ولم يمض طويلاً على توليه الحجابة، حتى طلب من الخليفة أن يعطيه ألقاباً سلطانية لم تكن لأبيه وأخيه من قبل، فما كان من الخليفة المغلوب على أمره إلا أن أعطاه لقب المأمون، ثم ناصر الدولة⁴³، إلا أن عبد الرحمن لم يتوقف عند هذا الحد، بل وأكثر من ذلك ذهب إلى ما لم يذهب إليه أبوه ولا أخوه، ولا تجرأ عليه أحد من خارج البيت المرواني من قبل⁴⁴، حيث أجبر الخليفة هشام أن يعطيه ولاية العهد من بعده، رغم أن خروج الخلافة من قريش كان متعارضاً في ذلك الوقت مع المعتقد السني على الأقل⁴⁵، فما كان من الخليفة إلا أن استجاب لطلبه⁴⁶ وجعله ولياً لهده.

لقد كان لهذه الحادثة التأثير البالغ على مجرى الأحداث في الأندلس، فأهل قرطبة اعتبروا ذلك أكبر محنة، إلى درجة أن عزوا بعضهم بعضاً⁴⁷، كما أن عبد الرحمن شنجل قام بتولية ابنه عبد العزيز خطة الحجابة ولقبه بسيف الدولة، فأصبح ذلك الطفل الصغير حاجباً للخليفة، فكانت هذه الحادثة مما زاد في تأليب أهل قرطبة ضد شنجل، ودفعهم

إلى التآمر عليه⁴⁸.

ومن هنا بدأت فصول الفتنة القرطبية التي أسقطت العامريين وأبعدتهم عن الحكم، وأدخلت الأندلس في دوامة من الأحداث الدامية.

لقد كانت البداية عندما خرج عبد الرحمن بن المنصور إلى الثغور الشمالية غازيا في جمادى الأولى 399هـ جانفي 1009 م، وذلك رغم التحذيرات التي تلقاها من معاونيه بأن لا يغادر العاصمة قرطبة في مثل هذه الأوضاع⁴⁹.

عندما وصلت إلى قرطبة أخبار عبور عبد الرحمن شنجول وجيوشه أراضي العدو، وبدء حربه معهم⁵⁰، قام رجل أموي يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار، تتبعه العامة في قرطبة، بالثورة على الخليفة هشام المؤيد بالله فخلعوه، ونصب هذا الأخير خليفة بعد أن تلقب بالمهدي، وتم ذلك في جمادى الآخر سنة 399 هـ / 1009 م⁵¹.

وفي هذه الأثناء وعندما علم عبد الرحمن بن المنصور بما حدث في قرطبة، رجع يطوي المسافات، إلا أن جنوده انفضوا من حوله شيئا فشيئا، وعندما اقترب من قرطبة أرسل إليه المهدي من قتله واحتز رأسه وحمله إليه، وكان ذلك في اليوم الثالث من رجب سنة 399 هـ / 03 مارس 1009 م⁵²، وبمقتل شنجول انتهت الدولة العامرية التي حكمت الأندلس أزيد عن ثلاثين سنة.

فرح القرطبيون كثيرا بهذه الثورة وما أحدثته من تغييرات، بل وساهموا في نهب القصور وسبي الجوارى مع الثوار، وإلى هذا الحد كان الوضع سيستقر، لولا أن محمد بن هشام المهدي قام بإهانة البربر الذين انضموا إليه بعد أن انفضوا عن عبد الرحمن بن المنصور، ففضل عليهم العامة والغوغاء واللصوص والمساجين الذين أخرجهم من السجون فتمادوا في النهب والسبي إلى منازل البربر، فهتكوا حرمتهم واستباحوا أموالهم على أنهم المسئولون عن تغلب العامريين عليهم⁵³، هذا الوضع أدى بالبربر إلى التكتل للدفاع عن أنفسهم، فالتفوا حول أحد الأمويين وهو هشام بن سليمان الذي لقبوه بالرشيد، وقاموا معه بثورة على الخليفة الجديد المهدي، الذي استطاع القضاء عليها وتمكن من قتل الرشيد⁵⁴.

عاد البربر مرة أخرى إلى التجمع، فالتفوا في شوال من سنة 399 هـ/ ماي سنة 1009 م حول أموي آخر هو سليمان بن الحكم، والذي بايعوه بالخلافة ولقبوه المستعين بالله⁵⁵، وللقيام بجولة جديدة مع المهدي، استعانوا هذه المرة بالملك القشتالي شانجه بن غرسية، والذي لم يتردد بدوره في مساعدتهم، وذلك انتقاما وتفرقة للمسلمين في الأندلس⁵⁶.

هكذا تواصلت أحداث الفتنة القرطبية بالصراع بين فريق البربر المغاربة من جهة، وفريق الأندلسيين من جهة أخرى، بالإضافة إلى تدخل الممالك النصرانية تارة يساعدون الأندلسيين وتارة البربر، وذلك بغية إضعاف الوجود الإسلامي. دامت أحداث الفتنة ثلاث وعشرون سنة، وكان آخر خلفائها هشام بن محمد بن عبد الملك المعتد.

حكم المعتد قرطبة سنتين بعد مجيئه إليها، لم تكن أفضل من حكم سابقه، فكثرت الاضطرابات وخاصة بسبب تصرفات وزيره حكم بن سعيد الفزاز، الذي استأثر بالسلطة وضيق على أهل قرطبة، فلم يصبروا عليه طويلا كما تعودوا، فقتلوه وطافوا برأسه في المدينة، يوم 12 من شهر ذي الحجة سنة 422 هـ⁵⁷ / 30 نوفمبر 1031 م، وكان ذلك بقيادة أمية بن عبد الرحمن العراقي.

وعمت الفوضى العاصمة، ودخلت العامة قصر الخليفة الذي اضطر إلى الخروج منه مع ولده ونسائه ملتجئا إلى المسجد الجامع، وعند ذلك اجتمع رأي أهل قرطبة على خلع المعتد وإبطال رسم الخلافة نهائيا، "ونودي في الأسواق والأرباض ألا يبقى أحد من بني أمية ولا يكتنفهم أحد..."⁵⁸، فأعلن الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور⁵⁹ انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها، وجعل الأمر شورى بين الناس، وحدث ذلك في الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة 422 هـ⁶⁰ 01 ديسمبر 1031 م.

عاصر ابن حيان في فترات شبابه الأولى الدولة العامرية، فشهد كيف انتقلت الأندلس من حالة القوة إلى أسوأ حالات الضعف، وهو ما جعله يعبر عن الفتنة بأوصاف تجربنا عن الحالة النفسية التي كان يعيشها، فيقول مثلا: "... إلى أن لحقت بيدي منبعت هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدهمة المفرقة للجماعة الهادمة للمملكة المؤتلة، المغربية الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية..."⁶¹.

ومن المعروف أن مؤرخنا لم يغادر قرطبة إلى أحد القواعد الأخرى، كما فعل ذلك كثير من علماء عصره، وإنما بقي في موطنه حتى وفاته فيه⁶²، وهذا شيء غريب، إذ أن المقام في عاصمة الأندلس، ولاسيما في أولى سنوات الفتنة كان مغامرة ليست مأمونة العواقب، وما أكثر ما يجبرنا ابن حيان ذاته عن علماء لقوا مصرعهم فيها، كالقاضي أبي الوليد بن الفرضي.

ويذهب الدكتور محمود علي مكي إلى أن خلف وابنه أبا مروان، لم يصبها شيء من كل ذلك، فلم يتعرضوا لأي مضايقة أو مصادرة أموال، كما أنها أمضيا فترة الفتنة في سعة مالية ويسر⁶³، وذلك راجع إلى ما يكون قد ادخره أو اكتسبه من العقار أيام خدمته وزيارا للمنصور بن أبي عامر⁶⁴.

ومع كل ذلك لم يكن مؤرخنا في عزلة تامة عن أحداث الفتنة، بل ربطته صداقات ببعض شخصياتها، مثل كاتب المظفر ابن المنصور أبي حفص بن برد، ووزير سليمان بن الحكم، وأبي محمد بن حزم الذين كانا من وزراء المستظهر.

والظاهر أن ابن حيان اعتزل السياسة وزهد في المناصب أيام الفتنة، وقد يعود ذلك إلى بعد نظره في هذا الموضوع، بدليل أقواله التي يفهم منها ذلك، فيذكر مثلا صديقيه وزير المستظهر فيقول: "... وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ومراتب نصبت لغير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل فلم يحلوا منها بنائل ولا قبضوا منها مرتزقا ولا نالوا مرتفعا وغرهم بارق الطمع ... ومع سلطان فقير ..."⁶⁵.

كما نستشهد عن هوان المناصب لديه في بيتين رواهما لأحد الشعراء، يصف أحد وزراء هشام المعتد بالله فيقول:

هيك كما تدعي وزيرا وزير من أنت يا وزير ؟
والله ما للأمر معنى فكيف من وزير الأمير ؟⁶⁶

وقد أمضى ابن حيان النصف الثاني من حياته في قرطبة التي أصبح يحكمها الجهاورة بعد انتهاء الفتنة القرطبية⁶⁷، حيث أصبحت أكثر أمنا ورخاء من قبل⁶⁸، كما تعرض مؤرخنا في هذه الفترة إلى إيذاء كبير حيث كاد يقتل من طرف عبد الملك بن جهور بسبب نقده لأخيه، لولا تدخل أبي الوليد بن جهور، وذلك خوفا من أن يقال أنهم قتلوا شيخ

الأدب والمؤرخين لديهم⁶⁹، وهذا الحادث هو الذي يكون قد أثر في ابن حيان فغير من علاقاته بملوك الطوائف وأدى به إلى الكف عن النقد اللاذع لهم خوفاً من البطش به⁷⁰. وقد أثرت الفتنة القرطبية في ابن حيان تأثيراً كبيراً، فهو كما ذكرنا سابقاً من الجيل الذي يسميه الدكتور محمود مكّي: "جيل الفتنة البربرية"، والذين انتقدوا شعبهم وحكامهم وحرصوا على إظهار عيوبهم⁷¹، فيقول ابن حيان: "فإني امرؤ يُسرت لطلب هذا الخبر واقتفاء هذا الأثر أحرص شاردة وأقيد نافره وأبيت بأبوابه وأنصب لطلابه فشغلت به دهرًا ... إلى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء ... ففاضت أهوالها تعاضلاً أذهلني عن تقييدها ووهمني أن لا مخلص منها..."⁷².

وقد أخذت الفتنة القرطبية من اهتمام ابن حيان إلى درجة أن خصص لها كتاباً كاملاً سماه المتين، والذي فصل فيه أحداثها تفصيلاً لا يضاهيه فيه أحد⁷³، إلا أن هذا الكتاب كما أسلفنا سابقاً ضاع ولم تصلنا منه إلا ما نقله بعض المؤرخين الذين جاؤوا بعده، مثل ابن بسام في ذخيرته⁷⁴، وابن عذارى المراكشي في البيان المغرب⁷⁵، أو المقرئ التلمساني في نفح الطيب، وقد تميز أسلوب ابن حيان فيها وصلنا بالسرد الدقيق والمفصل دون تحليل كبير، كم تميز بالهجوم الشديد على كل من حوله خاصة العنصر البربري، فكان لا يخفي كرهه الشديد له وموالاته للأسرة الأموية⁷⁶، سواء كان ذلك قبل⁷⁷ أو أثناء⁷⁸ أو بعد الفتنة⁷⁹، لذلك أطلق عليها لفظ "الفتنة البربرية" كتحميل مباشر للبربر بالمسؤولية دون غيرهم.

وتتعدد الأمثلة التي تؤكد موقفه، فيقول عند ذكره وفاة زاوي بن زيري الصنهاجي: "ونعي إلينا عدو نفسه زاوي بن زيري موقد الفتنة بعد الدولة العامرية ... فالحمد لله المنفرد بإهلاكه الكفيل بقصاصه ... أهان الله مشواه، ولا قدس صدهاء"⁸⁰، كما يقول في موضع آخر عند الكلام عن ثوار البربر في الأندلس: "وهذه ناذرة من طخيات هذه الفتنة البربرية المبيدة أن طخت أرض هذه الجزيرة ..." ⁸¹، كما يستهجن ابن حيان ما قام به الحكم المستنصر من اجتباء للبربر من العدة المغربية قصد الخدمة في الجيش، ويعتبر ذلك سبباً لهلاك الأندلس واندلاع الفتنة بها فيقول: "ذكر اجتباء الخليفة لفرسان البرابرة العدويين ... فكان ذلك من بعده سبباً لتقدمهم طوائف الجند الأندلسي وهدمهم للملك

العادي وإلحاقهم للفتنة البربرية الخالقة ...⁸².

كما يحمل ابن حيان البربر كل نتائج هذه الفتنة من إلغاء للخلافة وهلاك البلاد، فيقول في سيق الكلام عن ابن أبي عامر: "... فاستظهر بهم [البربر] على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه ... إلى ما هم الآن بصده من إبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة ..."⁸³. ومن المؤسف حقاً، أن نجد عدداً من الباحثين المشاركة خاصة، يساندون ابن حيان في العصبية الظاهرة في أغلب صفحات تاريخه، بل ويذهبون إلى البحث عن المبررات والمسوغات لذلك، فيسعون إلى التأكيد بأن البربر هم سبب هذه الفتنة، حيث يقول الدكتور محمود علي مكي مثلاً: "وهي كراهية لا ترجع إلى أي سبب عنصري وإنما بسبب ما أحدثوه من الفتنة..."⁸⁴.

وفي الأخير نستطيع القول بأن ابن حيان عاصر أحداث الفتنة إلا أنه لم يشترك فيها بشكل مباشر، ورغم ذلك كان من أكبر المناصرين للفريق الأندلسي القرطبي ضد خصومهم المغاربة العدوين، فكانت مواقفه منها في أغلب الأحيان نابعة عن نظرة عنصرية مسبقة، إضافة إلى تأثره بأحداثها الأليمة، وقد أثرت آراءه في موضوع الفتنة على المؤرخين الذين أتوا بعده كما سنرى ذلك لاحقاً، وذلك بحكم أن هذا المؤرخ هو أكثر من ألف في موضوعها، إضافة إلى معاصرتهم ومعايشته لأحداثها، فاعتمد جل المؤرخين الأندلسيين والمغاربة بشكل خاص على مؤلفاته.

الهوامش:

1. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د، ت)، ج2، ص 218.
2. ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك): كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، ص 153، الحميدي (أبو عبد الله محمد): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2، 1983، ج 1، ص 321.
3. ابن الأبار (أبو عبيد الله محمد): التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام المراس، دار الفكر، بيروت، 1995، ج 1، ص 295.
4. ابن بشكوال: كتاب الصلة، ص 154.

5. ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف): المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973، مقدمة المحقق ص 19.
6. هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربيعي المعروف بصاعد البغدادى، جاء من المشرق إلى الأندلس أيام هشام بن الحكم المؤيد، اشتهر بكتاب الفصوص، هجر الأندلس أيام الفتنة القرطبية إلى صقلية، توفي في حدود سنة 410 هـ / 1019م . الحميدي: المصدر السابق، صفحة 510.
7. ابن بشكوال: المصدر السابق، ص 75 .
8. أبو عمر حمد بن عبد العزيز فرج المعروف بابن أبي الحباب، ولد سنة 310 هـ / 922م وهو من قبيلة مصمودة البربرية، كان معلماً للمظفر عبد الملك بن أبي عامر، توفي في شهر محرم سنة 400 هـ / 1009م أنظر: ابن الفرضي (عبد الله بن محمد): تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روجيه عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1997، ص 82. ابن بشكوال: المصدر السابق، ص 50.
9. هو عمر بن حسين بن نابل الأموي القرطبي، يكنى بأبي حفص، كان من بيت علم ودين عالم في الحديث، صادفته عاصر بداية الفتنة القرطبية فاختلف عقله وتوفي كفيف البصر سنة 401 هـ / 1011م. الحميدي: المصدر السابق، ص 475. ابن بشكوال: المصدر السابق، ص 577 .
10. هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي الأندلسي القرطبي الحافظ المعروف بابن الفرضي، قتل في الفتنة القرطبية يوم الإثنين لست خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة وبقي في داره ثلاثة أيام ودفن متغيراً من غير غسل ولا كفن ولا صلاة، أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 105، 106 . ابن خير الإشبيلي (أبو بكر محمد): الفهرسة، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، 1989، ص 125-127 .
11. هو أبو القاسم بن أبي يزيد المصري، ولد سنة 333 هـ / 944، هاجر من مصر إلى الأندلس، كان أديباً وحافظاً للحديث وشاعراً، عاصر الفتنة القرطبية، توفي سنة 410 هـ / 1019م . ابن بشكوال: المصدر السابق، ص 519 .
12. ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، مقدمة محمود علي مكي، ص 56.
13. المصدر نفسه، ص 56.
14. المقرئ (أحمد بن محمد): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1988، ج 4، ص 19، 20 .
15. ابن بشكوال: المصدر السابق، ج 1، ص 49 .
16. ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1985، ج 2، ص 210.
17. شخوم سعدي: الحياة العلمية في قرطبة من خلال كتاب المقتبس لابن حيان (377هـ / 989م-469 هـ / 1076م). رسالة ماجستير إشراف الدكتور موسى لقبال، كلية العلوم الإنسانية. قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001 م ص 15 .

18. عبد العزيز فيلاي: *العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص 20.*
19. شخوم سعدي: المرجع السابق، ص 17.
20. ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف): *المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق ب. شالميطا، المعهد الإسباني العربي، كلية الرباط، الرباط، 1979،*
21. ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف): *المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1983.*
22. Levi-provençal: Imilio Garcia Gomez – *Textos Inedit d'El Moktabas de Ibn Hayan Al-Andalous, Madrid, Grenada 1954, vol: 19, p – p 295 – 315.*
23. المقرئ: *المصدر السابق ج 1، ص 20.*
24. المصدر نفسه ج 4، ص 30.
25. ابن الأبار: *الحلة السراء، ج 1 ص 227. المغربي (عبد الملك بن سعيد): المغرب في حلّ المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط 2، 1964، ج 1، ص 199. ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): *أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2003، القسم الثاني، ص 119. المراكشي (عبد الواحد بن علي): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998، ص 28.**
26. ابن حيان: *المقتبس من أنباء أهل الأندلس، مقدمة محمود علي مكي، ص 79.*
27. ابن بسم (أبو الحسن علي): *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998، مج 4، ص 31.*
28. ابن شهيد أحمد بن عبد الملك الأندلسي أديب مشهور ولد بقرطبة سنة 382 هـ وتوفي بها سنة 426 هـ، له كتاب "التوابع والزوابع"، وكانت بينه وبين ابن حزم مكاتبات. أنظر: ابن بسم: *المصدر السابق، مج 1، ص 118-194. المقرئ (أحمد بن محمد): المصدر السابق، ج 4، ص 230-234.*
29. أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبو عمر بن عبد البر النمري من أهل الأدب البار، والبلاغة الرائعة، والتقدم في العلم والذكاء، ولد سنة 368 هـ وتوفي سنة 458 هـ ابن بسم: *المصدر السابق، مج 3، ص 82-93، ابن بشكوال: المصدر السابق، ص 89.*
30. ابن حيان (حيان بن خلف): *المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، ص 27.*
31. عبد العزيز فيلاي: *المرجع السابق، ص 217.*
32. الحميدي: *المصدر السابق، ج 1، ص 47.*
33. ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد): *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي برونفسال، دار الثقافة، ط 2، بيروت، 1980، ج 2، ص 259، ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد): جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1977. ص 418،*

- المقري: المصدر السابق، ج1، ص 399.
34. ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص 276 .
35. ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج 2، ص 20.
36. ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص 269.
37. فراد محمد أرزقي: *القوى المغربية في الأندلس*، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 46 .
38. ابن الخطيب: *المصدر السابق*، القسم الثاني، ص 68 .
39. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 2، ص 301 .
40. المقري: المصدر السابق، ج1، ص 423 .
41. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 41 .
42. النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب): *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980، ج23، ص 407، ابن الخطيب: المصدر السابق، القسم الثاني، ص 88، ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد): *الكامل في التاريخ*، تحقيق نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت ط 2، 1967، ج7، ص 84.
43. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 40، ابن الخطيب: المصدر السابق، القسم الثاني، ص 85.
44. المراكشي: المصدر السابق، ص 37 .
45. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): *القلمة*، تحقيق أحمد الزغبي، دار الأرقم، بيروت، (دت)، ص 222.
46. ابن حزم: *المصدر السابق*، ص 92.
47. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 47.
48. الصوفي خالد: *تاريخ العرب في أسبانيا - نهاية الخلافة الأموية في الأندلس*، دار الشرق، حلب، ط 1، (دت)، ص 126. عبد القادر بويابة: *البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي*، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي الوسيط، إشراف الدكتور غازي جاسم الشمري، وهران، 2001. 2002، ص 295 .
49. ابن الخطيب: المصدر السابق، القسم الثاني، ص 90 .
50. عبد المجيد نعني: *تاريخ الدولة الأموية في الأندلس*، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص 491.
51. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 61
52. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر*، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2000، ج4، ص 192، ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج2، ص 213.
53. ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 82 .
54. النويري: المصدر السابق، ج 23، ص 419.
55. ابن الخطيب: المصدر السابق، القسم الثاني، ص 107.

56. المقري : المصدر السابق، ج1، ص 428 .
57. ابن عذارى : المصدر السابق، ج 3، ص 146. ابن الأثير: الصدر السابق، ج 7، ص 290.
58. المصدر نفسه: ج 3، ص 152.
59. هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور كان وزيرا زمن الدولة العامية وبعد اشتعال الفتنة القرطبية ابتعد عن السياسة وشؤونها، وعند اقضائها وزوال الخلافة الأموية سيطر على مقاليد الحكم في قرطبة فأمن خاضعها وأشاع فيها الأمن والأمان، حيث لم يبرح منزله إلى القصور وإنما كان متواضعا يعود المرضى ويمشي مع الجنائز على سيرة الصالحين، ولد سنة 364 هـ، وتوفي سنة 435 هـ. انظر: ابن الأبار: المصدر السابق، ج 2، ص 34 30، ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 185، ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج 1، ص 56، ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد): مطلع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ط 1، ص 180 - 186.
60. المصدر نفسه: ج 3، ص 146.
61. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 358 .
62. ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، مقدمة محمود علي مكّي، ص 31.
63. المصدر نفسه، ص 18.
64. ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 218
65. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 30 . ابن عذارى: المصدر السابق، ج 3، ص 137.
66. ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ج 3، ص 147 .
67. شخوم سعدي: المرجع السابق، ص 9.
68. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 374 .
69. ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج 1، ص 117 .
70. ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، مقدمة محمود علي مكّي، ص 48 .
71. المصدر نفسه: ص 112.
72. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 358
73. ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، مقدمة محمود علي مكّي، ص 68.
74. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 357 - 382.
75. ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ج 3، ص 84 - 190.
76. محمود إسماعيل: الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي، منشورات دار الزمن، الدر البيضاء، (د،ت)، ص 101.
77. ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، ص 189.
78. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 358 .

79. المصدر نفسه، مج 1، ص 365.
80. ابن بسام: المصدر السابق، مج 1، ص 365.
81. مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقيق، الرباط، ط 1، 2004، ص 137.
82. ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، ص 189.
83. المصدر نفسه: ص 193.
84. ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، ص 114، أنظر أيضا: السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984، ج 1، ص 20.

L'Andalou Ibn Hayyan et la sédition de Cordoue

Salim HADJ SAAD ^(*)(**)

Résumé:

La sédition de cordoue est considérée comme une tournant décisif dans l'histoire de l'andalousie , en raison de son impact sur tous les domaines ; elle est alors comptée comme le commencement de la fin de la présence musulmane sur la péninsule Ibérique .

Les historiens ont été en désaccord dans le récit des événements de cette crise et dans la détermination des responsabilités. Parmi les dignitaires qui ont vécu cette sédition , Ibn Hayan , quoi a pris parti pour le camp des Andalous contre leurs adversaires du camp des Berbères maghrébins . C'est ce qui a en fait influencé sa vision sur l'écriture de cette histoire.

(*) Maître-assistant "A"- Département des sciences humaines –Faculté des sciences humaines et sociales - Université d'El oued – Algérie.

(**) Doctorant au Département d'Histoire et d'Archéologie- Faculté des Sciences Humaines et Sociales- Université de Constantine– Algérie.